الفصل الرابع

التطور التاريخي لبعض أصوات العربية

obeikandl.com

التطور التاريخي لبعض أصوات العربية

سبق لنا أن ذكرنا، أن سيبويه – مثله مثل اللغويين القدامى الذين جاءوا بعده– كان يعد الطاء، والقاف، والهمزة أصواتاً مجهورة. كما أنه كان – كغيره من اللغويين القدامى أيضاً – يصنف الضاد ضمن الأصوات الرخوة (الاحتكاكية)، كما كان يصنف صوت الجيم في مجموعة الاصوات الشديدة (الانفجارية).

ومن المعلوم أن الدرس الصوتي الحديث يعدّ صوتي الطاء، والقاف صوتين مهموسين لا جهر، أو لا أثر للجهر فيهما. كما أنه يعد الهمزة صوتاً مهموساً، أو صوتاً لا هو بالمهموس ولا بالمجهور على خلاف في ذلك. أما بالنسبة لصوت الضاد، فإن التصنيف الحديث لعلم الأصوات يضع هذا الصوت في قائمة الأصوات الشديدة (الانفجارية)، وفيما يتعلق بصوت الجيم الفصيحة، فانها تعد، في الدرس الصوتي الحديث، المعتمد على نطق مجيدي القراءات القرآنية، صوتاً مركباً Affricate.

وهكذا فإنَّ بين التصنيف الصوتي الحديث، والتصنيف الصوتي، لدى اجدادنا من علماء اللغة، خلافاً واضحاً بشأن هذه الأصوات الخمسة. فما السبب الكامن وراء هذا الخلاف؟

إنَّ الدارس لتراث العرب، في المجال اللغوي بعامة، والصوتي بخاصة، لا يملك إلا أن ينحني إكباراً وإجلالاً لعبقريتهم، التي استطاعوا بها – في وقت مبكر من حضارة الإنسان، وبدء مسيرته الفكرية – أن يضعوا تصورات ناضجة في ميدان علم ما زال العلماء، في الوقت الحاضر يبذلون، في سبيل إيجاده والتقعيد له، جهوداً مضنية، دون أن يصلوا به إلى نهاية الشوط، أو حتى إلى مستوى من مستويات الاتفاق حول الكثير من مسائله وقضاياه.

ومع ذلك فإنه ليس بوسع الدارس اللغوي، للخلافات القائمة بين وجهات النظر الصوتية القديمة والحديثة، إلا أن يضع بعض الاحتمالات التي قد ترتد إليها تلك الخلافات، أو إلى بعضها على الأقل. ومن تلك الاحتمالات – على سبيل المثال–:

١. ألا يكون مفهوم القدماء من لغويي العرب – وعلى رأسهم شيخهم سيبويه–لظاهرتي الجهر والهمس، والاحتكاك والانفجار واضحاً على النحو الذي استقر عليه التصنيف الصوتي الحديث.

٢. أو أن التوفيق لم يحالف سيبويه – ومن لفَّ لفَّه من العلماء– في وصف هذه الأصوات، فوضعوا المهموس مجهوراً، والشديد رخواً.

٣. أو أن يكون هناك تطور قد عرض لتلك الأصوات في الألسن المعاصرة، جعلها مختلفة عن المألوف الذي كانت عليه في الألسن

القديمة.

ويبدو لنا أن الاحتمال الأول ليس قوياً، وأنه لا يقوى على الصمود أمام البراعة والدقة، التي اتسم بهما تصنيف سيبويه للأصوات العربية، وتحديد الملامح المختلفة التي اتسمت بها.

وفي مقابل ذلك، فإننا لا نستبعد أن يكون هناك تطور قد طرأ على نطق هذه الأصوات في الألسن المعاصرة. أو أن يكون الوصف "السيبويهي" لتلك الأصوات غير دقيق، وخاصة أنه – أي سيبويه- كان – كما كان غيره أيضاً – يعالج الأصوات ويصنفها معتمداً في ذلك كله على حسه وذوقه الشخصي، دونما أجهزة أو آلات تمكِّنُه من الوصف العلمي الدقيق ، الذي اتسم به هذا العلم في الوقت الحاضر.

وسنحاول – في الصفحات الآتية – توضيح هذا الأمر ، وجلاءه آملين ان نتعرف إلى ماضي هذه الأصوات ، وما يمكن أن يكون قد طرأ عليها في رحلة انتقالها من اللسان القديم إلى وضعها المعاصر في الألسن العربية.

أولاً- صوت الطاء:

وصف سيبويه – وغيره من اللغويين العرب القدامى- صوت الطاء بأنه صوت شديد مجهور مفخم، وعده واحداً من أصوات

المجموعة المسماه "حروف القلقلة"، وهي القاف، والطاء، والباء، والجيم، والدال، التي يجمع بينها ملمحا الشدة والجهر. كما أن شيخنا عدَّ هذا الصوت مقابلاً مفخماً لصوت الدال، فهما – أي الطاء والدال- يتفقان- عنده- في ملمحي المخرج والجهر، ويختلفان في كون الطاء صوتاً مفخماً، والدال صوتاً مرققاً مقابلاً له . وفي هذا يقول سيبويه:" لولا الإطباق – أي التفخيم- لصارت الطاء دالاً..."(١).

وهذا الوصف لصوت الطاء عند سيبويه، ومن سار على هديه من اللغويين، يختلف عن وصف المحدثين له؛ فهو – في الوصف الصوتي الحديث- صوت أسناني لثوي، انفجاري، مهموس، مفخم، يتم النطق به عندما يلتصق طرف اللسان بالأسنان العليا، ومقدمه باللثة، كما يرتفع مؤخره – في الوقت نفسه- نحو الطبق، ويتأخر قليلاً نحو الجدار الخلفي للحلق، كما أنَّ اللسان – حال النطق بهذا الصوت- يتخذ شكلاً مقعراً؛ أي يرتفع أقصاه وطرفه مع تقعير وسطه. وعندما يفترق طرف اللسان عن موضعه يندفع الهواء المتراكم خلف نقطة الالتقاء محدثاً انفجاراً مسموعاً، ولا يتذبذب الوتران الصوتيان عند النطق به.

ويكمن الخلاف بين تصنيف سيبويه لهذا الصوت، وتصنيف المحدثين له، في أنّ سيبويه – والتراث الصوتي أيضاً -عدَّ هذا الصوت

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٦.

مجهوراً، وأنه المقابل المفخم لصوت الدال، في حين يعده المحدثون – كما ينطقه مجيدو القراءات القرآنية –صوتاً مهموساً، ويعتبرونه المقابل المفخم لصوت التاء.

والواقع أنّ وصف سيبويه لهذا الصوت بأنه المقابل المفخم لصوت الدال، هو الذي سوغ له – ولغيره –وصفه بالجهر، حيث يؤدي اعتبار التفخيم والترقيق، الفارق الرئيس والوحيد بين هذين الصوتين، إلى اتفاقهما في كل الخصائص والملامح، ومن بينها ملمح الجهر.

أما وصف المحدثين لهذا الصوت، بأنه المقابل المفخم لصوت التاء، فقد سوغ لهم وصفه بالهمس، حيث يؤدي اعتبار التفخيم والترقيق الفارق الرئيس والوحيد بين هذين الصوتين إلى اتفاقهما في كل الخصائص والملامح، ومن بينها الهمس.

وكما يبدو لنا المحدثون منسجمين مع أنفسهم أيضاً في وصف هذا الصوت بالهمس، فإنَّ القدامى يبدون منسجمين مع أنفسهم أيضاً في وصف هذا الصوت بالجهر، ومن شأن هذا التصور أن يقودنا إلى استنتاج مؤداه: أنَّ الطاء، التي يتكلم عنها المحدثون، ليست هي الطاء التي تحدث عنها القدماء، وعلى رأسهم شيخهم سيبويه.

إذن فما هي هذه الطاء، التي وصفها سيبويه، وتحدث عنها، وخلع عليها ملمح الجهر، واعتبرها المقابل المفخم لصوت الدال؟

يقرر الدرس الصوتي الحديث، أنّ المقابل المفخم لصوت الدال هو صوت الضاد الحالية، فهل كانت الطاء التي تحدث عنها شيخنا تقابل ضادنا الحالية؟

يرى الدكتور إبراهيم أنيس "أنه من الممكن أن نستنتج من وصفهم – يعني القدماء- أنها كانت صوتاً يشبه الضاد التي نعرفها الآن. وهنا يتضح قول ابن الجزري: إنّ المصريين ينطقون بالضاد المعجمة طاء مهملة."(١)

وهذا يعني أن هناك خلافاً حاداً بين صوت الضاد بمفهوم القدماء، وربما في نطقهم أيضاً، وهذا الصوت نفسه عند المحدثين من علماء الأصوات. ويؤكد علماء اللغة القدامى هذا الخلاف عندما يذكرون بأن الإطباق هو الفارق الوحيد بين الطاء والدال. يقول سيبويه:" لولا الإطباق لصارت الطاء دالاً...، ولخرجت الضاد من الكلام، لأنه ليس من موضعها – أي مخرجها- شيء غيرها"(٢).

ونحن نعلم -كما يزودنا الدرس الصوتي الحديث لعلم الأصوات -أن المخرج الذي ينتمي إليه صوت الضاد، وهو المخرج الأسناني اللثوي Denti alveolar، لا ينفرد به هذا الصوت وحده،

---

(١) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ٦٢.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٣٦

وإنما تشترك معه فيه أصوات أخرى، هي: الطاء، والدال، والتاء، والسين، والصاد، والزاي.

وإضافة إلى ذلك، فإنَّ القدماء يعدون الضاد صوتاً مفخماً، ليس له مقابل مرقق، على خلاف المحدثين، الذين يعدّون الدال مقابلاً مرققاً لصوت الضاد المفخم. وهذا من شأنه أن يؤدي بنا إلى اعتقاد جازم بأنّ الضاد القديمة لم تكن في النطق شبيهة بالضاد الحديثة، وهذا يرجح في نظرنا اعتبار الطاء القديمة المجهورة صوتاً شبيهاً، أو قريب الشبه جداً، بصوت الضاد الحالية.

إنّ شبكة العلاقات الصوتية، التي تربط بين الأصوات المفخمة، ومقابلاتها المرققة، والأصوات المجهورة، ومقابلاتها المهموسة، تمكننا من تأكيد هذه الحقيقة التي نذهب إليها.

فصوت الطاء الحالي، صوت شديد مهموس مفخم، يقابله صوت التاء الشديد المهموس المرقق، ويقابله – من ناحية أخرى–صوت الضاد الشديد المجهور المفخم. ويرتبط صوتا التاء والضاد المقابلان لصوت الطاء في الترقيق والجهر على التوالي، بشبكة علاقات وترقيق وجهر وهمس مع أصوات أخرى، والتخطيط التالي يوضح ذلك:

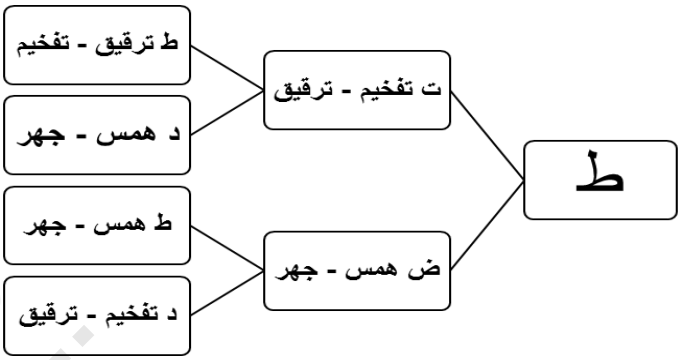

وهكذا يتضح لنا، أن طروء الجهر على الطاء يحولها إلى مقابلها المجهور وهو الضاد، في حين يؤدي طروء الهمس على الضاد إلى تحويلها إلى مقابلها المهموس، وهو الطاء.

ومما يؤكد هذا الاستنتاج، ما ذهب إليه المستشرق الألماني برجشتراسر من أن "الطاء أيضاً مهموسة اليوم، مجهورة في الجدول (أي في الجدول الذي وضع فيه وصف القدامى للأصوات العربية)، والفرق بينها وبين القاف، أن نطق القاف العتيق لا يزال باقياً في بعض اللهجات، ونطق الطاء العتيق قد انمحى وتلاشى تماماً."(١)

كما يؤكد ذلك المستشرقُ الألماني "شاده"حيث يقول: "سيبويه يعد من المجهورة الطاء والقاف. وفي لفظ عصرنا لا نصيب للأوتار الصوتية في انتاجهما ولكن ذلك لا يصح إلا عن لفظ المدارس (أي

(١) برجشتراسر: التطور النحوي للغة العربية. ص: ١٧

obeikandl.com

الفصحى الحالية)، وأما اللهجات، فتخالفها مخالفة شديدة؛ فإنَّ سكان جنوب جزيرة العرب مثلاً، يلفظون الطاء كأنها ضاد المصريين، والقاف كأنها جيم المصريين بإطباق، فيقولون مثلاً: (وجَع فوجَنا مَضَر) يعني وقع فوقنا مطر، أو (قَضعْتُ وَرَجَة) يعني: قطعت ورقة. ومثل ذلك يصح عن غير لهجة جنوب جزيرة العرب، من اللهجات العصرية"[1].

وعلى هذا، فإنّ التطور الصوتي الذي لحق صوت الطاء القديمة يتمثل في أنه انقلب إلى مقابله المهموس وشبيهه في الاطباق، وهو صوت الطاء الحالية. إنَّ كل ما حدث لهذا الصوت، في رحلة تطوره، يتجلى في توقف الوترين الصوتيين عن الذبذبة، مما أدى إلى تحوله في النطق، إلى صوت مهموس على كل مستوى من مستويات النطق في عالمنا العربي، وفي قراءة القرآن الكريم أيضاً.

ثانياً- صوت القاف:

وصف سيبويه – وغيره من اللغويين العرب- صوت القاف بأنه صوت شديد (انفجاري) يخرج "من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك

(١) شاده: علم الأصوات عند سيبويه وعندنا. ص: ١٣.

الأعلى، ثم ذهب هذا العالم إلى أن هذا الصوت يتسم - بالإضافة إلى ذلك - بملمح الجهر".[1]

أما عند المحدثين، من دارسي الأصوات والباحثين فيها، فإنه صوت لهوي، انفجاري، مهموس يتم انتاجه عندما يرتفع أقصى اللسان حتى يلتقي بأدنى الحلق واللهاة، ثم يضغط الهواء المتراكم خلف نقطة الالتقاء مدة من الزمن إلى أن ينخفض أقصى اللسان فجأة فيندفع الهواء محدثاً صوتاً انفجارياً مسموعاً، ولا يتذبذب الوتران الصوتيان حين النطق به.

ويعني هذا، أن هناك مسألة خلاف رئيسية بين وصف سيبويه – ومن لف لفه من العلماء – لهذا الصوت ، ووصف المحدثين له ؛ وتتمثل هذه المسألة الخلافية في أنَّ سيبويه كان يعد هذا الصوت صوتاً مهموساً لا جهر فيه.

ويبدو لنا أن السبب، في هذا الخلاف، يعود إلى أحد احتمالين:

أولهما: أن القاف التي تحدث عنها سيبويه كانت صوتاً يشبه – إلى حد كبير– تلك القاف المجهورة التي نسمعها الآن بين القبائل العربية في السودان، وبعض القبائل في جنوبي العراق ، فهم ينطقون بها نطقاً

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٣- ٤٣٤

يخالف نطقها في معظم اللهجات العربية الحديثة ، إذ نسمعها منهم نوعاً من "الغين"[1].

والواقع أن صوت القاف، وهو صوت انفجاري شديد، يميل في النطق اللهجي، في بعض البيئات العربية، إلى الاقتراب من صوت الغين المجهور، أو صوت الخاء المجهَّر، وذلك فيما إذا خفت حدة الشدة فيه، مما يؤدي إلى اكتسابه صفة الاحتكاك الشديد، أو الحاد الناجم- في تصورنا - عن أحد احتمالين:

١. اعتراض اللهاة -وهي- كما هو معروف - قطعة لحمية صغيرة تشرف على الحلق في أقصى الفم ، وتتدلى من سقف الحنك الرخو، أو الطبق – لتيار الهواء المتدفق من الرئتين عبر الحنجرة والحلق على نحو متكرر، وهذا من شأنه أن يجعل الصوت الناتج، قريب الشبه بصوت الغرغرة ، الذي ينسجم "فوناتيكياً" مع صوت الغين إلى حد كبير.

وفي هذه الحالة، فإنَّ اللهاة تبقى العنصر العضوي الفعال في عملية الانتاج الصوتي، ومن شأن هذا – في حالة اطراد حدوثه – أن يضفي صفة الشرعية على وصف القدماء ، أو وصف بعضهم كالخليل

(١) د. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ٨٤.

وابن يعيش ، لهذا الصوت بأنه صوت لهوي[1] . بيد أنّ الصوت الناتج لا يكون قافاً لهوية شديدة مهموسة، كما هي الآن في النطق المعاصر، وإنما يكون صوتاً لهوياً احتكاكياً مجهوراً، أو صوتاً لهوياً شديداً مجهوراً؛ بسبب الشبه القائم بين الغرغرة، التي يتسم بها هذا الصوت، والتكرار الذي يتصف به صوت الراء الذي وصفه سيبويه نفسه بالشدة. ويُسمع مثل هذا الصوت – بجلاء ووضوح -في بعض البيئات الفلسطينية، حيث يجنح بعض الناطقين اللهجيين في أثناء نطقهم لهذا الصوت، إلى إخراج صوت شبيه بصوت الغرغرة إلى حد كبير.

٢. تقدم مخرج هذا الصوت – لا وهو اللهاة في الأصل -إلى الأمام قليلاً، حيث صادف الطبق، الذي يعدُّ مخرج كل من أصوات الكاف والغين والخاء، وفي هذه الحالة، فإن هذا الصوت ينقلب إلى صوت شبيه بصوت الغين المجهور، أو صوت الخاء المجهَّر، كما ذكرنا قبل قليل. ويسمع مثل هذا الصوت في السودان وجنوبي العراق، كما يُسمع في بعض الكلمات المصرية كما يذكر الدكتور رمضان عبد التواب.[2]

---

(١) الخليل بن أحمد: العين. ١/ ٦٥. وكذلك:
ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٤.

(٢) المدخل إلى علم اللغة. ص: ٧٣- ٧٤.

ولهذا النوع، من النطق بالقاف، أمثلة من التراث القديم؛ فقد ذكر أبو الطيب اللغوي أن من العرب من يقول: غلام أقلف وأغلف، أي لم يختن، والقمز من الناس والغمز، أي الرذال ومن لا خير فيه، وقلقل في الأرض وغلغل، أي ذهب في الأرض[1].

وثانيهما: أنّ القاف التي تحدث عنها سيبويه، كانت صوتاً قريب الشبه بالجيم القاهرية (g)، ويتسم هذا الصوت الأخير بالشدة كالقاف، إلا أنه يختلف عنه في صفة الجهر، وتقدم المخرج إلى الأمام قليلاً.

ويؤيد هذا الرأي ويدعمه، نطق كثير من أبناء اللهجات العربية لصوت القاف على هذا النحو الذي ألمحنا إليه؛ فالكثير من القبائل البدوية، وأغلب الناطقين في شرقي الأردن، يحولون ها الصوت في نطقهم إلى صوت الـــچـــاف، أو ما يُسمى بالجيم "القاهرية". وفي هذه الحالة، فإنَّ مخرج القاف يتقدم إلى الأمام قليلاً حيث المخرج الطبقي، أو بدايته، أو لنقل حيث المخرج الممكن وقوعه بين المخرجين اللهوي والطبقي. وممّا يعزز هذا الاتجاه، أنّ بعض القدماء، كالخليل وابن يعيش وغيرهما، صنفوا مع صوت القاف في المخرج، صوت الكاف. ومن

(١) أبو الطيب اللغوي: الإبدال. ٢/ ٣٢٨- ٣٢٩.

المعروف أن صوت الكاف هذا صوت طبقي (قصيّ) يقترب في مخرجه من المنطقة المتوسطة بين اللهاة والطبق.

ولهذا النوع من النطق بالقاف أمثلة في التراث العربي، فقد روى أبو الطيب اللغوي قول العرب: بائقة وبائجة للداهية، وأحنق وأحنج، أي ضمر الفرس، وتلقفت البئر وتلجفت، أي أكل الماء جوانبها، وزلَّقت الموضع وزلجّته أي ملّسته[1].

ويروي ابن دريد أن بني تميم "يلحقون القاف بالكاف فتغلظ جداً، فيقول: الـــگـــوم، يريدون القوم، فتكون القاف بين الكاف والقاف، وهذه لغة معروفة في بني تميم، قال الشاعر[2]:

ولا أگول لـگدر الـگوم گـد نضجت ولا أگـول لباب الدار مـگـفول

وهكذا، فقد تكون صورة النطق بهذا الصوت في الماضي متعددة، ولم تلتزم صورة موحدة، أو شبه موحدة. غير أن القاسم المشترك، أو الجامع، بين صور النطق المختلفة لهذا الصوت، يتمثل في ملمح الجهر، الذي وصفه به سيبويه واللغويون القدامى بعامة – بالإضافة إلى عدم الالتزام الدقيق بالمخرج اللهوي بالمعنى الحديث.

---

(١) أبو الطيب اللغوي: الإبدال . ٢/ ٢٣٩- ٢٤٠.

(٢) ابن دريد: جمهرة اللغة. ١/ ٥.

obeikandl.com

ولم يقتصر تعدد صور النطق بهذا الصوت على وضعه في ألسن القدماء فحسب، فالواقع النطقي المعاصر لهذا الصوت لا يقل اختلافاً وتنوعاً عمَّا كان عليه في الماضي. بل إنَّ صور النطق بالقاف المعاصرة، قد اتخذت أكثر من اتجاه تطوري، وخاصة في المجال المخرجي، "وتطور الصوت بتغيير مخرجه يكون بأحد طريقين، إما بانتقال المخرج إلى الوراء أو إلى الأمام، باحثاً الصوت في انتقاله عن أقرب الأصوات شبهاً به من الناحية الصوتية"[1]، وهذا ما حدث لصوت القاف في تطوره المعاصر؛ فبالإضافة إلى الصور النطقية القديمة لهذا الصوت، والتي ما تزال حية على ألسنة الكثيرين من أبناء العربية، في بيئات لغوية مختلفة، فقد وجدنا أن نطق بعض العرب لهذا الصوت قد اتخذ اتجاهين تطوريين آخرين تمثلا فيما يأتي:

١) تراجع مخرج نطق هذا الصوت، في ألسنة معظم سكان المدن والحواضر العربية، إلى الخلف، فصادف في طريقه مخرجين اثنين، هما: المخرج الحلقي، والمخرج الحنجري، ولا يوجد في هذين المخرجين، حسب التصنيف الصوتي الحديث، ما يقابل صوت القاف في ملمحي

(١) د. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ٨٦.

الشدة والهمس إلا صوت الهمزة الحنجري الشديد المهموس[1]، ممّا سهل عملية تطور هذا الصوت ، وهو القاف ، إلى أكثر الأصوات شبهاً به في الملمح وهو الهمزة.

ويبدو أنّ مثل هذا التطور لم يكن مقصوراً على نطق القاف المعاصرة، فقد روي لنا مثل هذا التطور في بعض كتب التراث؛ فها هو ذا أبو الطيب اللغوي يروي بعض الأمثلة، التي وردت – كما سمعها عن العرب– بالقاف والهمزة، ومنها قول بعض العرب: قشبه وأشبه، أي لامه وعابه. والقوم زهاق مائة، وزهاء مائة، أي قريب من مائة. والقفز والأفز، أي الوثب[2].

٢) تقدم مخرج نطق هذا الصوت – في رحلة تطوره على ألسنة معظم سكان الأرياف، وخاصة في فلسطين– إلى الأمام، فصادف في طريقه مخرج الطبق، أو الحنك اللين، ولا يوجد في هذا المخرج حسب التصنيف الصوتي الحديث، ما يقابل صوت القاف في ملمحي الشدة

---

(١) يعدُّ بعض اللغويين صوت الهمزة صوتاً مهموساً. يُنظر على سبيل المثال:

د. تمام حسان: مناهج البحث في اللغة. ص: ٩٧. وكذلك:

د. عبد الرحمن أيوب: أصوات اللغة. ص: ١٨٣. كذلك:

د. عبد الصبور شاهين: في التطور اللغوي. ص: ٢٤٠.

(٢) أبو الطيب اللغوي: الإبدال. ٢/ ٥٦١– ٥٦٢.

والهمس، إلا صوت الكاف الطبقي الشديد المهموس، مما سهل عملية تطور هذا الصوت، وهو القاف، إلى أكثر الأصوات شبهاً به في الملمح وهو الكاف.

وعلى الرغم من هذا التعدد النطقي لصوت القاف في الماضي والحاضر، إلا أنَّ الاتجاه السائد بين الدارسين اللغويين يميل إلى ترجيح كون القاف القديمة صوتاً شديداً مجهوراً، قريباً في نطقه من نطق الجيم القاهرية، ولعل هذا عائد إلى كثرة الناطقين بهذا الصوت على هذه الشاكلة، مما أدى إلى ذيوعها وانتشارها كثيراً، بالقياس إلى غيرها من الصور المحلية لنطق هذا الصوت.

بيد أن هذه الصورة النطقية قد تعرضت مع الزمن إلى نوعين من التطور، وقد شمل أحدهما منطقة المخرج، حيث تراجع إلى الخلف قليلاً فأصبح لهوياً صرفياً، وشمل ثانيهما صفة الجهر، حيث أصبح مهموساً لا أثر لاهتزاز الوترين الصوتيين فيه. ولقد تجلى هذا التطور، عبر العصور، بوضوح على ألسنة قراء القرآن الكريم الذين نعتبرهم – ويعتبرهم غيرنا أيضاً – مصدر التوثيق والتأصيل في ميدان الدرس التاريخي لأصوات العربية.

ثالثاً- صوت الهمزة :

وصف سيبويه – وغيره من اللغويين القدماء – صوت الهمزة، بأنه صوت مجهور، وأنه – بالإضافة إلى ذلك – ينتمي مع أصوات أخرى إلى المخرج الحلقي[1].

وقد ذكرنا في موضوع سابق[2]، أن نسبة الهمزة إلى المخرج الحلقي أمر ليس بالدقيق؛ إذ إنّ صوت الهمزة يخرج – ومعه في التصنيف الحديث صوت الهاء- من الحنجرة. وقلنا إنّ من المحتمل أن يكون مصطلح الحلق لدى سيبويه – وغيره من اللغويين القدماء- مصطلحاً عاماً أُطلق ليشمل – بالتعميم- تلك المنطقة الواسعة التي تشتمل على أكثر من مخرج من بينها الحنجرة.

وقلنا – أيضاً -لعل مصطلح الحنجرة لم يكن معروفاً لدى سيبويه ولدى غيره من القدماء، على نحو محدد، ذلك أن معرفة هذه المنطقة المسماة حنجرة بحاجة إلى أجهزة ووسائل علمية لم تكن، في عصر هذا العالم، بَلْه عصر من جاء بعده من العلماء، معروفة.

أما بالنسبة لملمح الجهر الذي وصف به سيبويه- ومعه التراث

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٣- ٤٣٤.

(٢) يُنظر، ص: ٧٥، وما بعدها من هذه الدراسة.

اللغوي- صوت الهمزة فإنها مسألة خلافية ما زالت موضع مناقشة حتى الآن.

فالدكتور تمام حسّان، والدكتور رمضان عبد التواب، والدكتور عبد الرحمن أيوب وغيرهم، يعدّون الهمزة صوتاً مهموساً، "وتأتي جهة الهمس في هذا الصوت من أن إقفال الأوتار الصوتية معه لا يسمح بوجود الجهر في النطق. ولكن النحاة والقراء أخطأوا فعدوا هذا الصوت مجهوراً، وهو أمر مستحيل استحالة مادية ما دامت الأوتار الصوتية مقفلة في أثناء نطقه"(١)

أما الدكتور إبراهيم أنيس، والدكتور محمود السعران، والدكتور كمال بشر وغيرهم، فإنهم يعدّون صوت الهمزة صوتاً لا هو بالمجهور، ولا بالمهموس؛ "لأنّ فتحة المزمار معها مغلقة إغلاقاً تاماً، فلا نسمع لهذا ذبذبة الوترين الصوتيين، ولا يسمح للهواء بالمرور إلى الحلق إلا حين تنفرج فتحة المزمار، ذلك الانفراج الفجائي الذي يُنتج الهمزة"(٢). ومعنى هذا "أنَّ وضع الأوتار الصوتية حال النطق بها (أي الهمزة) لا يسمح بالقول بوجود ما يسمى بالجهر، أو ما يُسمى بالهمس "(٣).

---

(١) د. تمام حسان: منهاج البحث في اللغة. ص: ٩٧.

(٢) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ٩٠.

(٣) د. كمال بشر: علم اللغة العام، الأصوات. ص: ١١٢.

ويبدو أن الدكتور أنيس، صاحب فكرة هذا الملمح لصوت الهمزة، قد أخذ هذا الرأي – كما يقول الدكتور عبد الرحمن أيوب–عن الأستاذ دانيال جونز D. Jones، في كتابه An out Line of English Phonetics. (الطبعة السادسة ص:١٣٨ سنة ١٩٤٧ في إنجلترا)، حيث وصف الهمزة قائلاً:

(It is neither breathed nor voiced)، وقد فهم الدكتور أنيس كلمة (breathed) بمعنى "مهموس"[١].

وهكذا فقد انقسم اللغويون المحدثون إزاء هذا الملمح إلى قسمين: قسم يصف الهمزة بالهمس، وقسم ينفي عنها صفة الهمس، ولكنه لا يضفي عليها الجهر. غير أن أحداً من المحدثين لم يصف الهمزة – كما فعل سيبويه وكل من جاء بعده من اللغويين– بالجهر. فما الدافع الذي حدا بالقدماء، وعلى رأسهم سيبويه، على وصف الهمزة بملمح الجهر؟

نقول: لعل السبب في ذلك يعود إلى واحد أو أكثر من الاحتمالات الآتية:

١) لقد تداخل صوتا الألف والهمزة، في التصنيف الصوتي للغويين العرب القدامى. ونسب بعضهم – مثل سيبويه وآخرين–هذين

(١) د. عبد الرحمن أيوب: أصوات اللغة. ص: ١٨٤.

الصوتين – ومعهما أصوات العين، والحاء، والغين، والخاء- إلى المخرج الحلقي. في حين وصف الخليل بن أحمد هذين الصوتين –ومعهما صوتا الواو والياء- بأنها أصوات هوائية ؛ لأنها – كما يقول الخليل نفسه- لا يتعلق بها شيء[1].

وقد حاول بعض اللغويين القدامى – كما مرّ معنا – التوحيد بين هذين الصوتين، واعتبارهما شيئاً واحداً، أو كأنها بمنزلة الشيء الواحد، ممّا جعل العلاقة بين هذين الصوتين علاقة قوية. ولما كانت حروف المد واللين، التي منها الألف، حروفاً مجهورة فليس من المستبعد، أو المستغرب، أن توصف الهمزة، بما توصف به – في العادة- الألف، ونعني بذلك الجهر.

٢) عندما تتعرض الهمزة للتسهيل، فإنّ "اقفال الأوتار الصوتية قد لا يكون تاماً حين النطق به، بل يكون اقفالاً تقريبياً، وفي حالة التسهيل هذه يحدث الجهر..."[2]

ومن المعلوم أنّ قريشاً، وأهل الحجاز بعامة، كانوا لا يلتزمون الهمز في كلامهم، ويعمدون إلى التخلص منه بطرق مختلفة من بينها التسهيل. في حين كانت بعض القبائل البدوية، وعلى رأسها قبيلة تميم،

---

(١) الخليل بن أحمد: العين. ١/ ٥٨.

(٢) د. تمام حسان: مناهج البحث في اللغة. ص: ٩٧.

تحقق الهمز. وقد ذكر ابن منظور، في خاتمة مقدمة معجمه "لسان العرب"، قول أبي زيد الأنصاري: "أهل الحجاز وهذيل وأهل مكة والمدينة لا ينبرون، وقف عليها عيسى بن عمر، فقال: ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر[1]، وهم أصحاب النبر، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا. قال: وقال أبو عمر الهذلي قد توضيت فلم يهمز وحوَّلها ياء، وكذلك ما أشبه هذا من باب الهمز"[2].

وبناء على هذا، فلعل ما ذهب إليه سيبويه، وغيره من اللغويين، من وصف الهمزة بملمح الجهر، يكون وصفاً لهذا النوع من الهمز الذي كان النطق به يغطي مساحة كبيرة من مساحات النطق اللغوي.

٣) ربما كانت الهمزة، التي وصفها سيبويه بالجهر، همزة متبوعة بحركة ما، ومن شأن هذا أن يؤدي إلى تأثر صوت الهمزة بملمح الجهر الذي تتسم به كل الحركات. الأمر الذي أدى بدوره إلى وصف الهمزة بالجهر الذي تأثرت به من الحركة المجاورة لها. ولتوضيح ذلك نقول: إنّ

---

(١) يقصد بالنبر الهمز، قال ابن منظور في أثناء شرحه لمادة "نبر" "والنبر: مصدر نبرَ الحرفَ ينبره نبراً همزهُ. وفي الحديث قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا نبيء الله فقال لا تنبر باسمي، أي لا تهمز، وفي رواية: فقال: إنَّا معشر قريش لا ننبر، والنبر همز الحرف، ولم تكن قريش تهمز في كلامها"

(٢) مقدمة معجم لسان العرب لابن منظور.

تيار الهواء الصادر من الرئتين، والمار في القصبة الهوائية، يتعرض للانحباس خلف الوترين الصوتيين في منطقة فراغ الحنجرة، فيضغط هذا الهواء إلى أن يُفتح الوتران الصوتيان المنطبقان، مما يؤدي إلى انطلاقه محدثاً انفجاراً تعقبه ذبذبة في الوترين الصوتيين تُمثِّل الجهر الذي تتسم به الحركة التالية لصوت الهمزة مباشرة. ويبدو أن هذه الآلية قد أوقعت علماءنا القدامى في وهم أن الهمزة هي محل الجهر، أو ربما أحسوا بشيء من الجهر في الهمزة المتأثرة بالحركة التالية لها.

رابعاً- صوت الضاد:

وصف سيبويه – ومعه غيره من اللغويين العرب القدامى- هذا الصوت بأنه صوت رخو (احتكاكي) يتم انتاجه من بين أول حافة اللسان، وما يليها من الأضراس، وأنه – بالإضافة إلى ذلك- صوت مجهور مطبق (مفخم)[1].

أما عند المحدثين من اللغويين، فإنه صوت انفجاري (شديد) يتم انتاجه عندما ينحبس تيار الهواء الصادر من الرئتين احتباساً تاماً خلف منطقة التقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا ومقدم اللثة، كما يصاحب نطق هذا الصوت ارتفاع مؤخر اللسان تجاه الطبق وعندما

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٣- ٤٣٦.

obeikandl.com

ينفصل اللسان عن نقطة الالتقاء، ينطلق الهواء محدثاً صوتاً انفجارياً، يتذبذب، في أثناء النطق به، الوتران الصوتيان.

وعلى هذا فصوت الضاد، يعد المقابل المفخم للدال، والمقابل المجهور للطاء؛ فالفارق بين صوتي الضاد والدال هو فارق التفخيم والترقيق، كما أنَّ الفارق بينه وبين صوت الطاء، هو فارق الجهر والهمس. فالضاد – بناء على هذا الوصف عند المحدثين- صوت أسناني لثوي انفجاري مجهور مفخم (مطبق).

ويتضح لنا من مقارنة وصف سيبويه – ومعه التراث اللغوي العربي- ووصف المحدثين لهذا الصوت، أن ثمة فروقاً أساسية بين الضاد العربية القديمة، والضاد المعاصرة التي يُنطق بها الآن في معظم أنحاء العالم العربي، وإنَّنا لمجملون أَهمَّ تلك الفوارق فيما يأتي من سطور:

أولاً- ملمح المخرج:

وهو – عند المحدثين- كما ذكرنا قبل قليل- المخرج الأسناني اللثوي، أو المخرج اللثوي، كما يذكر بعضهم، في حين ينتج هذا الصوت – كما يذكر سيبويه- من مخرج "من بين أول حافة اللسان، وما يليها من الأضراس" أو – كما يقول ابن جني- " من أول حافة اللسان، وما يليها من الأضراس، إلا أنك إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن، وإن شئت

من الجانب الأيسر"[1]. ويشرح ذلك – أو لنقل يكرره – المبرّد حيث يقول: "الضاد ومخرجها من الشدق فبعض الناس تجري له في الأيمن، وبعضهم تجري له في الأيسر".[2]

وينسب الخليل بن أحمد صوت الضاد إلى مخرج الجيم والشين، فيقول:" ثم الجيم والشين والضاد في حيز واحد"[3]، ثم يحدد هذا العالم الكبير – بعد ذلك- مخرج هذه الأصوات الثلاثة، وهو شجر الفم، فيقول: "الجيم والشين والضاد شجرية لأن مبدأها من شجر الفم"[4].

ولكن سيبويه يذهب – خلافاً لما سبق- إلى أنّ صوت الضاد يستقل بمخرجه، ولا يشاركه فيه غيره من الأصوات؛ فهو يقول – كما ذكرنا غير مرة -:" ولولا الاطباق لصارت الطاء دالاً، والصاد سيناً، والظاء ذالاً، ولخرجت الضاد من الكلام، لأنه ليس شيء من موضعها غيرها".[5]

---

(١) ابن جني: سر صناعة الإعراب. ١/ ٤٧.

(٢) المبرد: المقتضب. ١/ ١٩٣.

(٣) الخليل بن أحمد: العين. ١/ ٥٨.

(٤) السابق. ١/ ٥٨.

(٥) الكتاب ٤/ ٤٣٦.

obeikandl.com

وهكذا، فإنّ مخرج الضاد، عند سيبويه، يختلف عن مخرجها الذي يصفه المحدثون. وهذا يوحي - بوضوح- أن الضاد التي كان يتحدث عنها سيبويه قد طرأ عليها – في نطق المعاصرين- تطور ليس بالقليل.

فهي – عند سيبويه- من بين أول حافة اللسان، وما يليه من الأضراس ، أو – كما يقول ابن جني وآخرون- من هذا الموضع مع امكان تكلفها من الجانب الأيمن، أو من الجانب الأيسر، أو هي – كما قال لغويون آخرون- من الشدق أو شجر الفم . وممّا عقَّدَ الأَمر، وجعله أكثر صعوبة في التصور، ما ذهب إليه سيبويه، وأشرنا إليه آنفاً – وهو استقلالية هذا الصوت بمخرجه، وعدم اشراك غيره معه في موضع اخراجه ونطقه.

أمّا الضاد الحالية، فإنها أَحد الأصوات التي تنتمي – وينتمي معها عدد كبير من الأصوات العربية- إلى المخرج الأسناني اللثوي . لهذا كله، فإنّ الضاد القديمة – من ناحية المخرج - غير الضاد التي يصفها دارسو أصوات العربية المحدثون، وينطق بها معظم أبناء العربية في الوقت الحاضر.

ثانياً- ملمح الرخاوة:

وصف سيبويه هذا الصوت بأنه صوت رخو (احتكاكي)، وأنّ تيار الهواء المنتج له يخرج – كما يذكر القدامى- من الجانب الأيمن، أو

من الجانب الأيسر، أو من كلا الجانبين. ولهذا فقد وصف سيبويه هذا الصوت بالاستطالة كما وصفه غيره من اللغويين – إلى جانب الاستطالة– بالتفشي[1].

ولقد نص سيبويه على أنّ صفة الاستطالة بالضاد تصلها بمخرج اللام[2]. ومن شأن هذا أن يُقدم لنا مساعدة جيدة في مجال تصور الوضع النطقي القديم لهذا الصوت تمهيداً لمعرفة التطور، أو التطورات، التي طرأت عليه في رحلته من الماضي إلى الحاضر.

أما المحدثون، فيصنفون هذا الصوت ضمن مجموعة الأصوات الشديدة أو الانفجارية التي ينحبس – في أثناء النطق بها– تيار الهواء الصادر من الرئتين خلف نقطة الإغلاق إلى أن ينطلق بفعل الضغط المتزايد والمستمر ، محدثاً صوتاً انفجارياً مسموعاً.

ثالثاً– ملمح الاطباق (التفخيم):

صنف سيبويه – ومعه في ذلك القدماء والمحدثون من اللغويين–صوت الضاد ضمن المجموعة الصوتية المطبقة (المفخمة). وتشمل هذه المجموعة – بالإضافة إلى هذا الصوت– أصوات الصاد،

---

(١) يُنظر، ص: ١١٩– ١٢٠، وما بعدها من هذه الدراسة.

(٢) الكتاب ٤/ ٤٥٧.

والطاء ، والظاء . ويتم الاطباق – في العادة- بارتفاع مؤخرة اللسان نحو الطبق.

ولكن سيبويه كان يعد صوت الضاد صوتاً مطبقاً ليس له – على غرار الأصوات المطبقة الأخرى- مقابل مرقق؛ ففي الوقت الذي نص فيه شيخنا على أن أصوات الدال، والسين والذال، هي المقابلات المرققة لأصوات الطاء، والصاد، والظاء، على التوالي، وجدناه يخرج صوت الضاد المطبق من اطار هذا التقابل والتناظر؛ فهو يقول : "لولا الاطباق لصارت الطاء دالاً، والصاد سيناً، والظاء ذالاً، ولخرجت الضاد من الكلام، لأنه ليس شيء من موضعها غيرها".

أما المحدثون فإنهم يرون في صوت الدال المقابل المرقق لصوت الضاد، ولعل هذه القضية الخلافية بين سيبويه، والقدماء بعامة، والمحدثين، تدعم وجهة النظر القائلة بخصوصية نطق الضاد، وأنّ قدراً لا يستهان به من التطور قد طرأ عليه.

إذن ما حقيقة نطق هذا الصوت؟ كيف كان؟ وكيف تطور إلى وضعه النطقي المعاصر؟

لقد سبق لنا أن ذكرنا غير مرة، أنّ الضاد التي تحدث عنها سيبويه ووصفها في كتابه، تختلف، إلى حد كبير جداً، عن الضاد التي ننطق بها الآن، سواء في المخرج، أو في الصفات. ويبدو لنا أن بضع

حلقات تطورية -وسيطة- من سلسلة النطق بالضاد قد تعرضت للضياع والاندثار في مراحل تاريخية مختلفة، ممّا أدى إلى بعد حاضر هذا الصوت عن ماضيه. وإذا لم يكن لنا بدٌّ من البحث عن أصل هذا الصوت، فإنّ لنا في محاكمة بعض النصوص اللغوية القديمة ومحاورتها أملاً من أجل الوصول إلى شيء "تقريبي" بشأن هذا الصوت:

١- إنَّ وصف سيبويه، لكيفية نطق هذا الصوت، يقترب كثيراً من وصفه – ووصف القدامى والمحدثين من اللغويين أيضاً- لكيفية نطق صوت اللام؛ فالهواء المنتج لصوت الضاد يخرج – كما يفهم من كلام سيبويه، ومن لف لفه من اللغويين – من الجانب الأيمن، أو من الجانب الأيسر، أو من كليهما، ولا يختلف وضع تيار الهواء في أثناء النطق بهذا الصوت -بناء على هذا الوصف- عن وضعه في أثناء النطق بصوت اللام؛ فتيار الهواء- عند النطق باللام – لا يسمح له بالمرور- بعد اتصال طرف اللسان باللثة خلف الأسنان العليا ، بحيث تنشأ عقبة في وسط الفم- إلا من خلال منفذ يتيح له الانسياب من أحد جانبي الفم أو كليهما.

وهكذا فإنّ تيار الهواء، في أثناء النطق بصوت الضاد، يسلك مساراً جانبياً شبيهاً – إلى حدٍّ كبير- بالمسار الذي يسلكه في أثناء النطق بصوت اللام.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنّ هناك شبهاً بين هذين الصوتين في الناحية المخرجية، وآلية النطق لكل منهما. بل لقد ذهب بعضهم إلى حد القول: بأنَّ "اللام تشارك الضاد في المخرج، لأن الضاد من أقصى الحافة، واللام من أدنى الحافة، والضاد حرف مستطيل استطال مخرجه، وامتدّ صوته حتى اتصل بمخرج اللام، فلذلك شابه لفظه لفظ اللام المفخمة، وربما أخرجه بعض الناس لاماً مفخمة، فاللام تشارك الضاد في مخرجه"(١).

ولقد أكد المستشرق "برجشتراسر" الرأي السابق عندما قال: "إنّ مخرجها – أي الضاد- قريب من مخرج اللام الذي هو أيضاً من حافة اللسان ، وذلك يدل على أنّ الضاد كانت تشبه اللام من بعض الوجوه...، ويغلب على ظني أن النطق العتيق للضاد لا يوجد الآن عند أحد من العرب، غير أنّ للضاد نطقاً قريباً منه جداً عند أهل حضرموت، وهو كاللام المطبقة، ويظهر أن الأندلسيين كانوا ينطقون الضاد مثل ذلك، ولذلك استبدلها الأسبان بأل (Id) في الكلمات العربية المستعارة في لغتهم مثال ذلك: أن كلمة "القاضي" صارت في الأسبانية Alcalde. وممّا يدل أيضاً على أنّ الضاد كانت في نطقها قريبة من اللام،

(١) محمد نمر حماد: اتحاف العباد في معرفة النطق بالضاد. ص: ١٨.

أنّ الزمخشري ذكر في المفصل، أنّ بعض العرب كانت تقول (الطجع) بدل (اضطجع)"[1].

ويبدو أنّ هذا المستشرق قد فاته أن يذكر أن سيبويه – شيخ الزمخشري وغيره من كبار اللغويين- قد نصّ- في معرض حديثه عن الإدغام – على ما ذهب إليه الزمخشري نفسه، وهو جواز إجراء تبادل بين الضاد واللام، ثم نراه يمثل على ذلك بما مثّل به الزمخشري، وهو " قول بعض العرب: الطجع في اضطجع"، ثم يُعلق على ذلك قائلاً : "أبدل اللامَ مكان الضاد كراهية التقاء المطبقين، فأبدل مكانها أقرب الحروف منها في المخرج والانحراف"[2]. ويروي المستشرق يوهان فك عن بعض اللغويين العرب أن الضاد العربية تنطق بست صور من بينها – على حدّ قوله – "من ينطقها لاماً مفخمة"[3].

وهذا يعني، أنّ الضاد القديمة – حسب الروايات التي ذكرناها- كانت قريبة الشبه بصوت اللا ؛ فكلا الصوتين جانبي، ويجمع بينهما اتحاد المخارج، أو قربه الشديد، كما ذكر سيبويه. غير أن الفرق الرئيس بينهما يكمن في أنّ اللام صوت يصحب انتاجه غلق جزئي

---

(١) برجشتراسر: التطور النحوي. ص: ١٨-١٩.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٨٣.

(٣) يوهان فك: العربية، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب. ص: ١٠٣.

Partial Closure في منطقة اتصال طرف اللسان باللثة، أما الضاد – عند سيبويه وعند غيره من اللغويين- فهو صوت رخو (احتكاكي) يمر الهواء – في أثناء النطق به- بين الأعضاء المتقاربة محدثاً صوتاً يتسم بالاحتكاك.

٢- ذهب بعض القدماء إلى وجود شبه كبير بين صوتي الظاء والضاد؛ فهي – أي الظاء- كما يقول صاحب كتاب اتحاف العباد "تشارك الضاد في أوصافه (المذكورة) غير الاستطالة، فلذلك اشتد شبهه به، وعسر التمييز بينهما، واحتاج القارئ في ذلك إلى الرياضة للاتصال بين مخرجيهما، ولولا اختلاف المخرجين وما في الضاد من الاستطالة لاتحدتا في السمع"(١).

ويقول ابن الجزري: "والضاد انفرد بالاستطالة، وليس في الحروف ما يعسر على اللسان مثله، فإنّ ألسنة الناس فيه مختلفة، وقلّ من يحسنه، فمنهم يخرجه ظاء"(٢).

ولقد أدى هذا الشبه بين الصوتين – في نظر القدماء- إلى إمكان حدوث تعاقب بينهما؛ فقد روى ابن خلكان أنّ ابن الاعرابي كان يقول:"

---

(١) محمد نمر حمّاد: اتحاف العباد في معرفة النطق بالضاد. ص: ١٧.

(٢) ابن الجزري: النشر في القراءات العشر. ١/ ٢١٩.

جائز في كلام العرب، أن يعاقبوا بين الضاد، والظاء، فلا يخطئ من يجعل هذه في موضع هذه، وينشد:

إلى الله أشكو من خليل أودُّه ثلاث خصال كلها لي غائض

بالضاد (بدل غائظ)، ويقول هكذا سمعته من فصحاء العرب[1]، وذكر السيوطي – في هذا المجال- جملة من الكلمات التي أُثِرَت عن العرب، والتي كانوا يعاقبون فيها بين الضاد والظاء، فقال:"في الغريب المصنف: فاظت نفسه تفيظ: مات، وناس من بني تميم يقولون: فاضت نفسه تفيض. وقال المبرد: أخبرني التوَّزي عن أبي عبيدة، قال: كلُّ العرب تقول: فاضت نفسه بالضاد إلا بني ضبة فإنهم يقولون: فاظت نفسه بالظاء، حكاه أبو محمد البطليوسي في كتاب الفرق. وفي الجمهرة: الحُضُض، ويقال: الحُضَض، ويقال: الحُظُظ والحُظَظ: صمغ نحو الصَّبر والمرِّ وما أشبههما. وفي كتاب الفرق للبطليوسي: حَظِلت النخلة وحضِلَت: إذا فسدت أصول سعفها. وسمعت ظباظب الخيل، وضباضبها: أصواتها وجلبتها، والعظ والعض: شدة الحرب، وشدة الزمان، والأرظ والأرض: قوائم الدابة..."[2].

(١) ابن خلكان:وفيّات الأعيان. ٤/ ٣٠٧. ويُنظر كذلك: سر صناعة الإعراب.١/ ٢١٥.

(٢) السيوطي: المزهر. ١/ ٥٦١- ٥٦٢.

وروى أبو علي القالي أنَّ رجلاً " قال لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: يا أمير المؤمنين، أيضحى بضبي؟ قال: وما عليك لو قلت بظبي؟ قال: إنها لغة، قال: انقطع العتاب ولا يضحى بشيء من الوحش"[1].

كما أورد الجاحظ – في هذا المجال- قصة طريفة قال فيها: "وزعم يزيد مولى ابن عون، قال: كان رجل بالبصرة له جارية تسمى ظمياء، فكان إذا دعاها، قال: يا ضمياء، بالضاد، فقال ابن المقفع: قل: يا ظمياء ...، فناداها: يا ضمياء. فلما غيَّر عليه ابن المقفع، مرتين أو ثلاثاً، قال له: هي جاريتي أو جاريتك!"[2]

ويذكر المستشرق الفرنسي هنري فليش أن العرب كانوا "يتباهون بنطقهم الخاص لصوت الضاد، وهو عبارة عن صوت مفخم، يُحتمل أنه كان ظاء جانبية، أي أنه كان يجمع الظاء واللام في ظاهرة واحدة وقد اختفى هذا الصوت، فلم يعد يُسمع في العالم العربي، وأصبح بصفة عامة إمَّا صوتاً انفجارياً، وهو مطبق الدال، وإمَّا صوتاً أسنانياً هو الظاء"[3]. ويؤيد برجشتراسر "أنّ نطق الظاء، كان قريباً من نطق الضاد

---

(١) القالي: ذيل الأمالي والنوادر. ص: ١٤٢.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين. ٢/ ٢١١ ، ينظر ص: ٥٨ من هذه الدراسة .

(٣) هنري فليش: العربية الفصحى. ص: ٣٧.

وكثيراً ما تطابقتا وتبادلتا في تاريخ العربية، وأقدم مثل لذلك مأخوذ من القرآن الكريم وهو "الضنين" في سورة التكوير، فقد قرأها كثيرون "الظنين" بالظاء مكان الضاد التي رسمت بها في كل المصاحف. وممن قرأها بالظاء: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، وكذلك النبي -ﷺ- كما قال مكي في كتاب (الكشف)"[1].

أما كانتينو، فقد وضع لنطق الضاد القديمة ثلاثة احتمالات، هي:

أ) أنها كانت تنطق قريبة الشبه من الظاء ذات زائدة انحرافية.

ب) أنها كانت تنطق قريبة الشبه بالدال المفخمة ذات زائدة لامية.

ت) أنها كانت تنطق قريبة الشبه بالزاي المفخمة ذات زائدة انحرافية.

ويرجح كانتينو الاحتمال الأول، وهو أنّ "النطق القديم كان (ظْلْ)؛ أي بتقريب طرف اللسان من الثنايا كما في النطق بالظاء، وبأن يجري النفس لا من طرف اللسان فقط، بل من جانبيه أيضاً"[2]. ويرى الدكتور إبراهيم أنيس أنّ "مما يُستأنس به لهذا التشابه بين الصوتين في

(١) برجشتراسر: التطور النحوي. ص: ١٩-٢٠.

(٢) كانتينو: دروس في علم أصوات العربية. ص: ٨٥- ٨٦.

النطق القديم، وقوعهما في فاصلتين متواصلتين من فواصل القرآن الكريم مثل ما جاء في سورة فصلت، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾"[1].ثم يُقدم الدكتور أنيس تخيلاً لإمْكان النطق بالضاد" بأن يبدأ المرء بالضاد الحديثة، ثم ينتهي نطقه بالظاء، فهي إذن مرحلة وسطى فيها شيء من شدة الضاد الحديثة، وشيء من رخاوة الظاء العربية ، ولذلك كان يعدها القدماء من الأصوات الرخوة"[2].

ومعنى هذا أن النطق بالضاد القديمة، كان يتراوح بين الظاء واللام المفخمة، ولهذا قال ابن حمّاد: "فاعلم أن الضاد في أوصافه أشد الحروف صعوبة على اللافظ، ولذلك مال لفظها إلى صوت الظاء تارة، وإلى صوت اللام المفخمة تارة لمناسبة هذين الحرفين الضاد"[3].

بيد أننا نرجح – فيما نرى– أن النطق القديم للضاد العربية ، التي وصفها سيبويه، ومن سار على خطاه، كان قريباً في الأعم الأغلب من

---

(١) د. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ٥٥.

(٢) السابق. ص: ٤٩

(٣) محمد نمر حماد: اتحاف العباد في معرفة النطق بالضاد. ص: ١٨-١٩.

نطق الظاء، أو أنه كان نطقاً وسيطاً بين نطق الضاد والظاء، وإن كنّا لا ننفي – في الوقت نفسه – إمكان نطقه على نحو مقارب للام المفخمة على ألسنة بعض العرب كما ورد في بعض النصوص القديمة. ولعل شيوع ظاهرة استبدال صوت قريب جداً من الظاء بالضاد، في كثير من الممارسات النطقية اللهجية، القديمة والحديثة يعزز هذا الذي نذهب إليه.

أما الآن، فإنّ النطق المعتمد للضاد في الفصحى، يغاير الأصل القديم، الذي وصف به هذا الصوت، بل ويغاير تلك التصورات التي افترضها الباحثون القدامى لإمكانات نطقه، فهو، عندنا الآن، واحد من الأصوات الانفجارية الشديدة المجهورة، ومخرجه هو المخرج الأسناني اللثوي، ويقف هذا الصوت المعاصر، بملامحه المختلفة، مقابلاً مفخماً لصوت الدال المرقق، ومقابلاً مجهوراً لصوت الطاء المفخم.

أما السبب في اطلاق "لغة الضاد" على اللغة العربية ، فإننا لا نعتقد أنه راجع – كما يقول ابن جنّي وغيره– إلى "أنَّ الضاد للعرب خاصة"[1]، وإنّما إلى كون النطق بهذا الصوت كان – كما يذكر الدكتور إبراهيم أنيس– عصيّاً "على أهالي الأقطار التي فتحها العر، أو حتى على بعض القبائل العربية في شبه الجزيرة، ممَّا يُفسر تلك التسمية القديمة

(١) ابن جنّي: سر صناعة الإعراب. ١/ ٢١٥.

"لغة الضاد"، كما يظهر أن النطق القديم بالضاد ، كان إحدى خصائص لهجة قريش"[1].

خامساً- صوت الجيم:

وصف سيبويه- وغيره من اللغويين العرب- هذا الصوت، بأنه صوت شديد – أي انفجاري- وأن مخرجه- كما ذكر سيبويه وابن جني[2] من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى، أو من شجر الفم، كما ذكر الزمخشري، وشارح مفصله ابن يعيش[3]. وهذا المخرج –في رأينا- يقابل- أو، لنقل، يرادف – مصطلح المحدثين، الحنك الصّلب أو الغار Hard Palate كما صنّف القدامى هذا الصوت، ضمن المجموعة الصوتية التي أطلقوا عليها مصطلح "أصوات القلقلة"، وهي الأصوات التي يجمعها قولهم "قطب جد".

والواقع أن هذا الصوت، يعدُّ من أكثر الأصوات العربية التي اختلف الباحثون اللغويون- وما يزالون- في كيفية نطق القدماء له.

---

(١) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ٤٩.

(٢) سيبويه: الكتاب. ٤/ ٤٣٣. ويُنظر كذلك: ابن جني: سر صناعة الإعراب. ٤٧/١

(٣) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٤

ولعل ما يعزِّزُ هذا الذي نذهب إليه، أن النطق المعاصر لهذا الصوت لا يقل اختلافاً، وتنوعاً عمَّا كان عليه من قبل؛ فهو لا يتخذ سَمْتاً واحداً، وطريقة موحدة – أو شبه موحَّدة- في اللسان العربي. وإنما تتعدَّد طرائق نطقه من بيئة لغوية أو لهجية إلى أخرى:

- فهو ينطق، في ألسنة أهل القاهرة المصريين، كافاً مجهورة، أي صوتاً خالياً من التعطيش، مخرجه من أقصى الحنك، وذلك على النحو الذي يُنطق به الصوت الإنجليزي (g)، في كلمة مثل:(go). وهذا يعني، أن مخرج الجيم قد تراجع موضعياً- بالقياس إلى ما قرَّره قدامى اللغويين العرب- إلى الخلف قليلاً، فاقترب من أقصى الحنك، أي الطبق.
- وينطق هذا الصوت نفسه، في ألسنة معظم أهل الصعيد في مصر، صوتاً شديداً قريباً من نطق صوت الدال –أو هو صوت الدال عينه- إلى حدٍّ كبير. وهذا يعني أن مخرج الجيم، قد تقدم موضعياً- بالقياس إلى ما قرره القدامى- إلى الأمام قليلاً، فاقترب من المخرج الأسناني اللثوي.
- أما في اللسان الشامي، ولدى بعض المغاربة، فإنّ هذا الصوت، ينطق شيناً مجهورة، أي صوتاً مبالغاً في تعطيشه، وهذا يعني أن مخرج الجيم، قد حافظ على موضعه الذي وصفه القدامى، غير

أنه تعرض –في أثناء النطق به إلى التهجير، بفعل ذبذبة الوترين الصوتيين.

- ولقد أخذ هذا الصوت– في منطقة الخليج العربي بعامة– لوناً آخر من النطق؛ فهو يسمع هناك، وكأنه نصف حركة Semi Vowel ونعني به الياء، وهذا يعني أن مخرج هذا الصوت قد حافظ –مرة أخرى– على موضعه الذي وصفه القدامى. بَيْدَ أن المضيق الذي يمر فيه تيار الهواء، في أثناء نطق هذا الصوت، والواقع بين وسط اللسان، ووسط الحنك الأعلى، يتَّخذ شكلاً أوسع مما يتخذه في أثناء نطق صوت الجيم المعطشة.
- أما مجيدو القراءات القرآنية –وهم في واقع الأمر، معتمد الدارس المعاصر، ومرجعه في عملية توصيف الأصوات وتصنيفها– فينطقون هذا الصوت على نحوٍ مركَّب يجمع –إلى حدٍّ كبير– بين نطق أهل صعيد مصر لهذا الصوت، وهو صوت الدال، ونطق الشاميين له، وهو صوت الجيم المعطشة. ويتم ذلك، بأن يرتفع مقدم اللسان تجاه مؤخَّر اللّثة ومقدم الحنك، حتى يتصل بهما محتجزاً وراءه الهواء الخارج من الرئتين، ثم – بدلاً من أن يفصل عنهما فجأة، كما في نطق الأصوات

obeikandl.com

الانفجارية- يتمُّ الإنفصال ببطء، فيعطي الفرصة للهواء بعد الانفجار أن يحتك بالأعضاءالمتباعدة احتكاكاً شبيهاً بما يسمع من صوت الجيم الشامية[1] فهذا الصوت -على هذا الأساس- صوت مركب Affricate، الجزء الأول منه، صوت قريب من الدال، والثاني، صوت معطش، كالجيم الشامية.

ولقد تعددت وجهات نظر الباحثين اللغويين المعاصرين في تفسير هذا الواقع المتعدد لنطق هذا الصوت؛ فذهب بعضهم إلى أن وصف القدماء لهذا الصوت بالشدَّة -أي الانفجار- يعني أحد احتمالين:

الأول: أنه كان يُنطق على نحو قريب من نطق صوت الدال، ويؤيد ذلك:

أ- أنَّ بعض اللهجات العربية، كلهجة أهل صعيد مصر، وبعض مناطق الجزائر، تنطق هذا الصوت دالاً، كما يمكن أن تفسر، على أساس هذا الاحتمال، بعض الكلمات في سوريا والعراق.[2]

---

(١) كمال بشر: علم اللغة العام "الأصوات". ص:١٢٥. وينظر، كذلك: تمام حسان: مناهج البحث في اللغة. ص:١٠٤.

(٢) أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي. ص: ٢٩٠.

obeikandi.com

ب- ما ذهب إليه الدكتور إبراهيم أنيس، من أن الاستعانة بموسيقى الفواصل القرآنية في سورة "البروج" ترجّح أن النطق القديم بهذا الحرف، كان أقرب إلى نطق الدال، وألصق بها من أي حرف آخر؛ فقد جاءت الفاصلة الأولى، في هذه السورة الكريمة، مختتمة بحرف الجيم، و**قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ **وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ** ﴿١﴾ ﴾ ثم جاءت بعدها ثماني فواصل، كلُّها مختتمة بحرف الدال، وهي: ﴿ **ٱلۡمَوۡعُودِ**، و **وَمَشۡهُودٍ**، و**ٱلۡأُخۡدُودِ**، و**ٱلۡوَقُودِ**، و **قُعُودٌ**، و **شُهُودٌ**، و **ٱلۡحَمِيدِ**، و **شَهِيدٌ** ﴾ وهذا يرجح -كما يقول الدكتور أنيس- أن القراءة، التي تبرز موسيقى الفواصل هنا، تحتم أن ينطق بالجيم نطقاً أقرب شبهاً بالدال، وأوثق اتصالاً بها.(١)

والآخر: أنه كان ينطق نطقاً قريباً من نطق الجيم القاهرية (g) والدليل على ذلك، ما ذهب إليه المستشرق "أنّوليتمان " Enno Littmann" من أن مقارنة اللغات السامية، كالعبرية والسريانية والحبشية، يؤكد ذلك.

(١) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص:٨٢

يقول ليتمان:" نعرف أن نطق هذا الحرف الأصلي، كان كما هو الآن في مصر، وكما كان ويكون في اللغات السامية الباقية. مثلاً: كلمة (جمل) في العبرية: gãmãl، وفي السريانية: gamlã، وفي الحبشية gamal. وتاريخ هذا النطق، كما يأتي: في الابتداء تغير نطق gĩm فصار ğĩm قبل حركة الكسرة فقط، ثم لفظت عند أهل الحجاز ğĩm إذا وقعت قبل كل الحركات، أي الفتحة، والضمة، والكسرة، وكان هذا النطق نطق القرشيين في زمان النبي –عليه الصلاة والسلام– فصار نطق القرآن الشريف"(١)

ويرجح كثير من الباحثين اللغويين هذا الاحتمال الأخير، ويعدون الجيم الخالية من التعطيش، هي الأصل في نطق هذا الصوت، ثم طرأ عليها بعض التغيير في ألسنة القبائل العربية؛ فالدكتور إبراهيم أنيس، يرى أن الجيم الخالية من التعطيش، هي الأصل، وقد بقيت على هذا الأصل السامي في اللغات السامية الأخرى، كالعبرية والسريانية. أما في العربية، فيبدو أنها تعرضت لتطورات كتلك التي حصلت للّغتين الإغريقية، واللاتينية. وذلك فيما يعرف بقانون الأصوات الحنكيَّة Palatal law. وملخَّص هذا القانون، أن صوت الجيم الخالي من التعطيش يتمُّ نطقه من أقصى الفم، بيد أنه يتعرض إلى التعطيش إذا وليته

(١) رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة. ص:٥٢-٥٣.

obeikandi.com

حركات أمامية، في حين، يبقى هذا الصوت غير معطش إذا وليته حركة خلفية. والسبب في ذلك، يعود إلى أن الحركة الخلفية تجذب هذا الصوت إلى مخرج خلفي، أي إلى أقصى الفم باتجاه الطبق أو اللَّهاة، وهما مخرجا الكاف والقاف على التوالي، في حين تجذب الحركة الأمامية هذا الصوت إلى مخرج أمامي، أي باتجاه وسط الحنك، أو إلى مخرج قريب من نطق الشين، غير أن صوت الجيم يؤثر -إذا ورد متحركاً- الحركة الأمامية- أي الكسرة، أو الفتحة المرققة-، أما الحركة الخلفية- أي الضمة- فقليلة الورود مع الجيم. وقد قام الدكتور أنيس، بإجراء إحصائية لعدد المرات التي وردت فيها الجيم بوصفها فاء للكلمة- متلوة بحركة أمامية في القرآن الكريم، فوجد أنها بلغت (١٢٦٤) مرة، على حين، أنها وردت متلوة بحركة خلفية (١٠٢) مرة فقط.[١]

ويؤيد الدكتور أنيس، في رأيه هذا، كلٌّ من الدكتور رمضان عبد التواب، والدكتور كمال بشر، يقول د. رمضان:" والظاهر أن صوت الجيم المزدوج هذا ليس أصلياً في اللغة العربية القديمة، وإنما هو متطور عن جيم تشبه نطق المصريين لهذا الصوت، والدليل على ذلك، مقارنة اللغات السامية الأخرى، كالعبرية، والسُريانية، والحبشية، فصوت الجيم

(١) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص:٧٩-٨١.

في هذه اللغات، صوت شديد يشبه نطق المصريين"[1]. ويقول الدكتور بشر:"التفسير الراجح في نظرنا، ربما كانت الجيم تنطق في القديم بما يشبه الجيم القاهرية (g) في اللغة العامية، وهذه الجيم الأخيرة شديدة أي انفجارية ولا شك، وهذا الاحتمال له ما يؤيده في القديم والحديث"[2].

أما إذا كان وصف القدماء لهذا الصوت، بالشدة غير دقيق، فيرى بعض المحدثين من اللغويين، أن هذا الصوت كان مركباً من صوت الدال الشديد، وصوت الجيم الشامية المعطشة، غير أن القدماء ركزوا –في رصدهم لنطق هذا الصوت– على خصائص الجزء الأول منه، وهو الدال، أو الجيم القاهرية، وأهملوا الجزء الثاني، وهو الانتقال من الانحباس إلى الانفجار البطيء الذي يحدث الاحتكاك[3]

وفي رأينا أن النطق المتعدد لصوت الجيم، في اللهجات العربية المعاصرة، ما هو إلا صورة للواقع النطقي المتعدد الذي كان عليه هذا الصوت في الماضي. ويبدو أن الدارسين اللغويين القدامى –فيما نرى– قصروا اهتمامهم– في أثناء حديثهم عن هذا الصوت– على نطق لهجة

---

(١) رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة. ص:٥٢

(٢) كمال بشر: علم اللغة العام. – الأصوات. ص: ١٢٦

(٣) المرجع السابق نفسه.

دون أخرى، إما لكثرة ذيوعها وانتشارها من جهة، أو لأنها كانت تمثل البيئة اللغوية التي ينتمون إليها.

ولهذا، فإننا نرى أن البحث عن أصل معين لنطق هذا الصوت، ما هو إلا نوع من الحَدْس، أو التخمين، أكثر من كونه حقيقة يمكن الإجماع عليها، أو الاجتماع حولها.

وإذا كنا نعدّ نطق مجيدي القراءات القرآنية مصدراً موثقاً نستقي منه- إلى حدٍّ كبير- الأصول المتوارثة، لنطق الأصوات العربية، فإن بوسعنا أن نعدّ هذا الصوت- كما ينطقونه- صوتاً مركباً من الدال والجيم المعطشة، كما سبق أن ذكرنا، وأن نعدَّ النطق بهذا الصوت يمثِّل -بدوره- مرحلة تطور تاريخية للنطق العربي، بَلْه الساميّ له. وهو بهذا يكون الصوت المركَّب الوحيد في النطق الفصيح- إذا جاز لنا هذا التعبير- للغة العربية. وهذا الصوت المركَّب ليس بِدْعاً في لغتنا، وإنما له أشباه ونظائر في بعض اللغات؛ ففي الإنجليزية صوت مركب مشابه، هو صوت أل (تْشْ) tš في مثل chair، وفي الألمانية أيضاً صوت مركب آخر هو أل (تْسْ) ts في مثل Goldziher أي جولد تسيهر، وهو اسم مستشرق ألماني مشهور. ولذلك، فلا غرابة في أن يكون في لغتنا صوت مركَّب من هذا القبيل. أما طرائق النطق الأخرى لهذا الصوت في اللهجات العربية المختلفة -قديمها وحديثها- فإن بالإمكان اعتبارها من قبيل التنوُّعات

اللهجية المسماة "ديافونات" Diaphones، أو من قبيل التنوعات النطقية الفردية المسماة "ڤاريفونات" Variphones، التي يجنح إلى ممارستها بعض أبناء اللغة الواحدة، على اختلاف بيئاتهم اللهجية، طلباً للخفة في النطق والسهولة في الأداء. فالصوت المركَّب -كما أسلفنا- صوت يجمع في نطقه بين الآلية الانفجارية، المتمثِّلة بالدال الغارية، والآلية الاحتكاكية، المتمثلة بالشِّين المجهورة. وهي -أي الجيم- "تتميز بالإغلاق الذي لا يستمر إحكامه، وفيها كما في الانفجارية حبْس، ولكن هذا الحبْسَ تتبعه حركة خفيفة من الفتح، بحال يجعل الانفجاري ينتهي بالاحتكاكي فالانفجاري الاحتكاكي انفجاري فاشل"(١).

ومما لا شك فيه، أن في هذه الآلية النطقية المزدوجة، التي يتطلبها انتاج هذا الصوت في آن واحد، عنتاً ومشقة أدَّت بالناطقين، أو بمعظمهم، إلى البحث، عن وجوه نطق أسهل. ولقد تمثَّل ذلك -كما ذكرنا- بطرائق نطقية مختلفة تميزت -على اختلافها- بأحادية الآلية الانفجارية، أو الاحتكاكية. "ومن الملاحظ في التطور اللغوي، أنَّ الأصوات المزدوجة، تميل في تطورها، بعد ذلك إلى أن تنحل إلى أحد الصوتين المكونين لها"(٢)

---

(١) فندريس: اللغة. ص:٥٠

(٢) رمضان عبد التواب: التطور اللغوي. ص:١٣٤.

ولعلنا نلتمس دليلاً إضافياً، على هذا الذي نذهب إليه، من كون هذا النوع من الأصوات المزدوجة، محدود العدد في كلّ اللغات، فضلاً عن خلوِّ بعض اللغات واللهجات أيضاً من نظائر له.

obeikandl.com